ضرورة الاعتماد على اللغات الكونية
في تعليم العلوم(*)

للدكتور عبد الهادي التازي

كان من المفيد جدًّا أن يكون في صدر محاور هذه الدورة تعليم العلوم باللغة العربية، هذا الموضوع الذي ظل طَوال العقود الماضية ويظل إلى اليوم مشغلة الأساتذة والآباء والمربين وخاصةً في البلاد العربية التي تعاني من مشكل تعليم العلوم باللغة العربية وخاصة في هذه الظروف التي تتميز بسرعة التطورات والمستجدات.

أقول "مشغلة" لأننا كآباء وأجداد، وأنا أتحدث عن نفسي – ندرك الحاجة الماسة لتلقين العلم بمعنى العلم (La science)، وليس بمعنى " العِلم الإسلامي" الذي حمل نفسه الأستاذ كولدزيهير Goldziher عناء تفسيره بفهمه الخاص لينعت العلماء في الإسلام بأنهم Catéchiste يعني فقهاء دين !

نقصد بالعِلم العلمَ البحتَ الصِّرف الذي كان أسلافنا يخصون صاحبه بنعت "التَّعاليمي" إضافةً إلى النعوت المعتادة الأخرى.

عندما كنا نسمع بالأمس عن صفة "التعاليمي" في ترجمة بعض رجالاتنا كنا نتصور نعتًا ذا حمولة غير حمولة "الفقيه" مثلاً ومعنى كل هذا أن أسلافنا كانوا يميزون جيدًا بين تخصص هذا وذلك، وعطاء هذا وذاك..

وعندما كنا نسمع عن المجالس العلمية المشتركة في الأندلس، المشتركة بين اليهود والمسيحيين والمسلمين كنا نعرف أن مادة التدريس لم تكن قطعًا مواد فقهية ولكن كانت مادة علمية صرفة وبلغةٍ يعرفها المحلقون على الدارس.. هكذا ورد في

(*) ألقيت هذه المحاضرة في الجلسة التاسعة من جلسات مؤتمر المجمع في دورته الخامسة والسبعين ظهر يوم الخميس ١٣ من ربيع الآخر سنة ١٤٣٠ هـ الموافق ٩ من أبريل (نيسان) سنة ٢٠٠٩م.

نـصوص المـدونات الأندلـسية ... المواد العلمية التي كانت تدرس كلهـا من طب وهندسة وفلك إلخ...

وعلى ذكر هذه المعلومة العالية التي تفيدنا بأنه لا تَميُّزَ في التعامل في العلم بين دين ودين، أذكر هنا بما نراه في كتب التراجم: تراجم "العلماء" التي لا تشعر فيها بفـرقٍ بـين إبـراهيم اليهودي وإبراهيم النصراني وإبراهيم المسلم... الكل يتبع الترتيب الأبجـدي عند تقديمه للقارئ !

عندما كان ابن جلجل يتحـدث عام ٣٧٧ هــ فـي تأليفـه (طبقـات الحُكماء)، وعندما كان القِفْطي كـذلك يتحدث في كتابه عن الأطبـاء عـام ٦٤٦، وابن أبي أُصَيْبِعة بعـدهما لـم يخطر ببال أحد أن يخلق فرقًـا بـين التعالميين على أساسِ مُعتَقَدٍ أو نِحلـة من النحل.

ذكر لسان الدين ابن الخطيـب في كتاب الإحاطـة أنـه فـي عـام ٥٥٣هــ=١١٥٨م كان في مدينة بياسة Beaza، (بلدة قديمة بالشمال شـرقي جيان [1]) عالم غرناطي يحمل اسـم عبد الله ابن سهل، ترجم له لسان الدين قائلاً عنه : إنه كان يحضر في دروسه جمع غفير من المسلمين والنـصارى واليهود ...وأنه اشتهر بعلم المنطـق، والعلوم الرياضـية، وسـائر العلـوم القديمة، وعظم أمره بـسببها، وامتـد صيته من أجلها، وأجمـع المـسلمون واليهود والنصارى على أنْ ليس فـي زمانه مثله ولا في كثير ممن تقدمـه، وبين هذه الملل الثلاث من التحاسد ما نعرفه، وكانت النصارى تقصده مـن طليطلة تتعلم منه أيام كان ببياسة ...

وقد ورد في نفح الطيب كـذلك في ترجمة الأستاذ محمد بن أبي بكـر القرموطي المرسي أنه كان من أعرف أهل الأندلس بالعلوم القديمة: المنطـق

(١) الإحاطة !!! ، ٤٠٦ – ٤٠٥ – النفح ١٧ ، ١٣٠ – د. التازي: : تاريخ جامع القرويين بفـاس، ج ١ ص ١١٧ ص ١٤١ – التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ٦ ص ١١٩ –١٢٠.

والهندسة والموسيقا والطب... كان فيلسوفًا طبيبًا ماهرًا، آية الله في المعرفة بالأندلس، يقرئ الأمم بألسنتهم فنونهم التي يرغبون فيها وفي تعلمها.

ولما تغلب ملك الروم على مرسيه Murcia (١٠شوال ٦٤٠هـ =٢ أبريل ١٣٤٣م) عرف له حقه فبنى له مدرسةً يقرئ فيها المسلمين والنصارى واليهود ... وكان العاهل القشتالي يريد منه أن يعتنق المسيحية فأجاب بقوله : أنا لم أصل في عبادتي إلى إرضاءِ ربٍّ واحدٍ طوال عمري فكيف يمكنني أن أرضي ثلاثة أرباب؟!

على تلك الحال كانت مجالسنا العلمية بالأندلس جنوب أوربا، كان الناس لا يُفرقون في الحقل العلمي بين يهودي ونصراني ومسلم...

بمعنى أن علينا أن نستعين، ونحن نتحدث عن تعليم العلوم، نستعين بأدواتٍ أخرى تناسب تلك العلوم بل إنها تفرض نفسها فرضًا على من يرغب في تعلم تلك العلوم !

هناك مثل "عربي" ذكي يقول : "من دَخَل ظَفَارِ حمَّر" أي إن على الذين تحدثهم أنفسهم بزيارة مدينة ظفار الحِميْرِيَة، عليهم ألا يقوموا بالزيارة إلا إذا كانوا يحسنون اللغة الحميرية ... حتى يكون التواصل كاملاً والفائدة شاملة...

ذلك هو ما كان عليه الحال عند التعاليمي بالأمس، ومن هنا كنا نتوفر على أطرٍ بالغةِ الأهمية في الميدان الهندسي، وظهرت رموز لنا كانت قمة في المعرفة البحتة، من أمثال عبد الرحمن الخازني صاحب (كتاب ميزان الحكمة) الذي يذكره العلم إلى الآن بكل تقدير وإكبار، ومن هنا أيضًا توفرنا على أطرٍ بالغة الأهمية في الميدان الطبي وظهرت بيننا أسماء لامعة مثل ابن سينا في المشرق وابن زُهْر في المغرب....

حتى أكون مختصرًا أرجو أن أقول : إن هناك فرقًا كبيرًا بين

الحقلين، حقل العلوم البحتة وحقل الآداب والشعر والفقه....

ثمة ملاحظة أخرى يجب عليَّ أن أقولها، تلك أن عددَ التعالميين كان محدودًا وقليلاً على طول الزمن وعلى العكس من ذلك كان عدد الأدباء والفقهاء في نمو مستمر ... ومن هنا كان الطلب على التعالميين ملحًّا أكثر... ومن هنا كان سعر العالم يوازي في بعض الأحيان وزْنه ذهبًا على ما قرأناه في تاريخ الأقدمين، بمعنى أن يُوزَن العالم وزنًا كما نزن أيةَ بضاعة، وعلى مقدار ما في الميزان من أرطال، يأخذ العالم مثلها ذهبًا!!

وليس معنى ما أقوله أن اللغة العربية كانت كاسدةً ضيقة الحَوْصَلة بما تريد التعبير عنه ... على العكس كانت العربية دائمًا قمة في أدائها وفي سعة صدرها...

أنا أذكر يوم كنا – نحن الدولَ العربية – نُسْهم في المؤتمر العالمي للأسماء الجغرافية الذي يوجد مركزه بين نيويورك وجنيف ... وقْتها طالبنا بأن تصبح اللغة العربية لغةً رسمية في المؤتمر .... فاحتج علينا المشرفون على المؤتمر بأن الموضوعاتِ المتبادلة تخضع لمصطلحات غريبة عن لغة الضاد ولكنا ألححنا على التجربة...

وأسفرت التجربة لحسن الحظ عن قدرةٍ عاليةٍ للغة العربية على اختراق الميدان الجغرافي ... وأَسْهمنا – وإلى الآن – في العطاء والاستفادة من الآخرين في الحقل العلمي الجغرافي، وقد برهنت الوفود العربية على أن بطْليموس قد يُصبح رجلاً يحمل اسم محمد بن موسى الخوارزمي (ت٨٤٩م) صاحب كتاب (صورة الأرض)، الذي شارك في النشاط العلمي الذي ازدهر في عهْد المأمون (ت٨١٣م) برهن العرب على أن بطليموس قد يكون رجلاً يحمل اسم الشريف الإدريسي السبتي صانع

الخريطة والكرة الأرضية ومؤلف (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) التي ألفها في باليومو (صقلية) بطلب من الملك النورماندي روجي عام ٥٤٨=١١٤٤..

أريد أن أؤكد على أن اللغة العربية فسيحة الصدر ... ولكن مشكلتنا اليوم أن الحقول تكاثرت ... والميادين اتسعت ، وفي كلّ يوم نجد أنفسنا أمام جديد يفرض علينا أساليبَ جديدة، فهل سنُضيّع الوقتَ في البحث عن الترجمات ؟ وهل سنبقى حبيسي التمسك ببضاعتنا رافضين للاستماع لما يقتحم بيوتنا كل صباح من معارف؟

في كل مرة تثار فيها قضية الاستعانة باللغات الكونية تتعالى الأصوات بالاحتجاج وربما باتهام الذين ينفتحون على اللغات الأخرى ! وكأن هؤلاء عاقون للغتهم العربية ! كافرون بمزاياها ! كلما أثيرت الدعوة إلى الاعتماد على اللغة الأجنبية في تلقي العلوم لجأ الناس إلى طرْق طبْلة آذاننا بقول شاعرنا الكبير حافظ إبراهيم:

وسعتُ كتابَ الله لفظًا وغايةً
وما ضِقتُ عن أي به وعظات
فكيف أضيق اليومَ عن وصْفِ آلةٍ
وتنسيق أسْماءٍ لمخترعات ؟

ومن الناس من تتبع كل ما يروى حول مباهج لغتنا ليروي قول أمير الشعراء أحمد شوقي :

إن الذي مَلأَ اللغات محاسنًا
جعل الجمال وسره في الضاد...

وقد سمعنا في "العيد الماسي" الذي احتفلنا به في العام الماضي بمبنى الجامعة العربية نماذج من هذا الشعر الجميل الذي ينصفنا من خصوم لغتنا العربية الذين ما فتئوا يعملون على أن يسموها بكل نقصٍ وعجزٍ وهَوان.

والله يأبى أن تُهان، فبشروا
مَن رام ذلَتها بكلِّ هوان !

بهذه الأبيات التي قيلت في

ظروفٍ معينة ولأغراضٍ وطنية موقوتة، بهذه الأبيات نشعر بنوع من التخدير يدب في جسمنا فلا نفكر في الإقدام على ما يجب الإقدام عليه ...

لا بد أن أردد هنا التعبير الذي يستعمله الفقهاء أثناء جدالهم، لا بد لي أن أقول : إن الجهة منفكة، أي أن ذلك واد وهذا واد! نحن نتكلم اليوم على ما جد في حياتنا اليومية من ضرورة مواكبتنا للركْب...

لقد رفض الطبيب أبو بكر بن زهر أن يعالج الخليفة عبد المومن الموحدي بنفس الدواء الذي كان والده أبو مروان عبد الملك يعالج به الخليفة بالأمس، لأن سن الوالد أمسى غير السن، والمزاجَ غير المزاج ... وبالعبارة المختصرة: اليوم يوم والأمس أمس !!!

أريد القول : إن علينا ونحن نستحضر أمجاد اللغة العربية وقدرتها على الأداء – أن نفكر أيضًا في إيجاد الحلول العملية لمساعدتها اليوم على الخروج من المحنْة التي تمر بها بسبب ضعف المعلمين الذين نعرف – وكلُّنا نعرف – أن زاد بعضهم متواضع فيما يتصل بالمادة العلمية، بل وفيما يتصل باللغة التي يؤدي بها المادة ! يجب علينا أن نتساءل عن السبب الذي يكمن وراء رغبة أبنائنا في الفرار من مدارس الحكومة إلى مدارس البعثات الأجنبية في حين أن مدارس البعثات الأجنبية تشكو من تهافت الطلبات عليها من كل جهة في الدول العربية، لقد أمسى الحصول على مقعدٍ في المدرسة الأجنبية يحتاج إلى الوساطات...!

لقد تخلصنا اليوم من المركب الذي كنا نشعر بها ونحن نعاني من المستعمر فيما يتصل بلغتنا، تخلصنا من العُقْدة التي كانت تدفع بنا إلى مقاطعة لغات الآخرين والاقتصار على لغتنا نحن بحاجة اليوم لتقوية أبنائنا وجعلهم قادرين على التحدي.

نحن الآن أمام تكوين أجيالنا

وتزويدها بكل عناصر القوة والمناعة التى يمتلكها غيرنا على الضفة الأخرى، وليس ببدعٍ أن نتسلح بنفس سلاح الآخرين...

لقد أفزعني أن أقرأ عن تقرير صديقنا الدكتور محمد البرادعي المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية ... ذلك التقرير الذي جاء فيه بالحرف ما يلي: "إننا نضحك على أنفسنا في أمر موضوعات التعليم والتكنولوجيا ! نحن لا نستطيع أن ننافس الآخرين بمناهج التعليم المختلفة الموجودة لدينا في العالم العربي! نحن ننفق اثنين في المئة فقط على البحث العلمي، وهو يشكل واحدًا على عشرة مما تنفقه الدول الأخرى من دخلها القومي. ليس لدينا بحث علمي، ليس لدينا مراكز دراسات استراتيجية تتوافر فيها المقاييس المعترف بها دَوْليًّا ... ! ليس لدينا تعليم .. ! عندما أقارن العالمَ العربي – يتابع البرادعي – بأجزاءٍ أخرى من العالم أقول : إنه ليس لدينا مستقبل ! يجب أن نمتلك الصراحة مع أنفسنا أولاً وأن نعترف بأنه لا مناص لنا من أن نبدأ من جديد ... وأن نركز على تعليم العلوم بالذات ... "انتهى كلام السيد البرادعي".

إن جل العلماء الذين يُرشَّحون للجوائز العلمية الكبرى على الصعيد الدولي كانوا من جنسيات غير عربية بمعنى أننا مطالبون أكثر من أي وقت مضى بتزويد ناشئتنا بالمادة العلمية التي تنقصنا بل التي نراها في انحدارٍ متوالٍ... علينا أن نشد أزْرَ أبنائنا بالكتاب المدرسي القوي ..

ولعل التصريح الذي أدلى به الأمين العام لجائزة نوبل، السيد هوراس إينكدال لعلّه وصل إلى مسامع جميعنا وهو يقول بالحرف حسبما صدر عن الجريدة الباريسية لير:

إن أكاديمية الجائزة لا تتوفر على مختصين في اللغة العربية بمعنى أن تلك المؤسسة ونظائرها من المؤسسات لا تجعل في حسابها ما

يكتب بالعربية؛ لأن الإنتاج في الميدان العلمي العربية؛ خافت إن لم يكن معدومًا بالمرة..

لا أريد أن أكون متشائمًا بالنسبة للموضوع المطروح علينا اليوم ولكنني أريد أن أنقل هنا بأمانةٍ أن عددًا من الندوات التي نظمت بالمغرب حول تدريس العلوم كانت تنتهي إلى أن الاهتمام ينصبُّ كله على محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه حول تعليم العلوم.. وبدلنا على مدى هذا الاهتمام ما صدر من عناوين للكتب المدرسية التي كانت تتنافس على جبْر الضرر الذي يشعر به المعلمون والآباء ... هذا التنافس يأتي - مع الأسف - بعد فوات الوقت وبعد أن تكون بعض المستجدات قد غابت عن المترجمين والمعربين.

وفي الخائفين والحذرين من أخذ يروج إلى إمكانية الاعتماد على اللغات الأجنبية في المرحلة الثانوية قياسًا على ما يجري في الجامعة فما دامت الجامعة قد رخصت لنفسها تلقين الطب والهندسة باللغات الأجنبية، لماذا لا يرخص للمدرسة الثانوية بما رخص به للكلية الطبية أو للمدرسة العليا للمهندسين ؟

أعتقد أنه من المفيد جدًّا أن يقوم مجمعنا الموقر إلى جانب هذه الدورة باستمزاج رأي سائر المؤسسات التعليمية الثانوية حول تعليم العلوم لديها ؟ مسيرته ؟ نتائجه ؟ وبخاصة عن مستوى المدرس الذي يعهد إليه بتدريس العلوم وعن محتوى الكتاب العلمي ؟ وهل إن تلك المؤسسات تتوفر فعلاً على الأطر الكافية والكفاءة لسد العجز الحاصل؟ وتتوفر على "الكتاب" الذي يستجيب للطلب.

إن تدخلي حول هذا الموضوع يتلخص في ثلاث نقاط : الأولى على ضرورة الاهتمام بالمعلم العرَبي وبخاصةٍ في تدريس المادة العلمية بحيث تتوجه كل جهودنا إلى أن نتوفر

على المعلم الكفء الذي يؤدي مادته العلمية بنفس الدرجة، وعلى نفس المستوى الذي يؤديه زميلُه في المعهد الأجنبي.

النقطة الثانية ضرورة الاهتمام بمستوى الكتاب العلمي والحرص على أن لا نسمح بظهور كتابٍ يخل بالمستوى المطلوب، ومن هنا يكون من الضروري تشكيل لجانٍ علمية ترصد ما يصدر في البلاد الأوربية من كتب علميةٍ لتقوم بتقييمها ومقارنتها بما يصدر من تأليف علمي ببلادنا ...

النقطة الثالثة : ضرورة التخلص من عقدة التحذير من استعمال لغةٍ غير اللغة العربية في تكوين أبنائنا ... ضرورة عدم الانصياع لتخْديرنا بأن اللغة العربيةَ هي الطريق الوحيد لتدريس العلوم...

ليس هناك أبدًا من حَرَج في أن نستفيد من كل الوسائل ومن كلّ تطور ... من أجل أن نكوّن أبناءنا على طريق متينٍ يضمن لهم الحصانة العلمية المنشودة. ولا بد أن نكون على قدر كافٍ من الاقتناع بقبولنا لمتطلبات العهد الجديد وتجاوبنا مع اللغات الكونية وخاصةً فيما يتصل بالعلوم والتكنولوجيا وأن نعيش مع الزمن الذي يعيش فيه الآخرون حتى لا نسمح بأي تأخر أو تخلف أو تقصير في الالتحاق بالركب العلمي الذي يأخذ طريقه دون توان...

أ.د. عبد الهادي التازي

عضو المجمع من المغرب